

الحلقة الثانية والعشرون

سفر الجامعة

برنامج أنوار كاشفة

أهلاً ومرحباً بك صديقي المستمع في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. بدأنا قبل عدة لقاءات بدراسة سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

ختم سليمان الحكيم في اللقاء الماضي حديثه عن ملاحظاته العامة حول الحياة. فتكلم عن عدم قدرة البعض على التمتع بالحياة، بالرغم من حصولهم على الثروة، وذلك بسبب ابتعادهم عن الله خالقهم. وأن الإنسان ربّما يعيش سنين طويلة، لكنه لا يستطيع التمتع بخيرات الحياة.

سنبدأ في هذا اللقاء الحديث عن مشورة سليمان الحكيم العملية. وكنا قد تأملنا أولاً في تجربة سليمان الحكيم الشخصية في الحياة، والتي تحدث عنها في بداية سفر الجامعة. فتكلم عن محاولاته المتعددة والمتكررة للبحث عن المعنى الحقيقي للحياة. إذ جرّب الحكمة، والثروة، وإشباع شهوات الجسد، والثقافة. وكانت النتيجة أن وصل إلى القناعة التي ردها كثيراً في سفر الجامعة: «أن الكل باطل وقبض الريح، ولا فائدة للإنسان من كل تعب». ثم تحدّث لنا عن ملاحظاته العامة حول الحياة. فتكلم على سبيل المثال، عن أهمية الوقت، ومنفعة العمل. وعن الظلم والعدل في العالم. وعن الحسد، وصراع الأجيال، ومحبة المال، وكيفية التمتع بالحياة.

مستمعي الكريم، بعد أن تحدّث سليمان الحكيم عن اختبار الشخص، وبعد أن أبدى ملاحظاته العامة حول الحياة، كان لا بدّ له أن يقدّم لنا مشورته العملية، ونصائحه السديدة. فكتب أولاً قائلاً: « إن كل جهد الإنسان يلتهمه فمه، أما شهيته فلا تشبع» (الجامعة ٧:٦ تفسيرية). وبتعبير آخر: إن الإنسان يعمل ويبذل الجهد لكي يؤمّن طعامه. وكما قال الله منذ البداية لأدم: « بالتعب تأكل منها - أي من الأرض - كل أيام حياتك... بعرق وجهك تأكل خبزاً» (تكوين ٣:١٧، ١٩أ). فهذه هي سنة الحياة منذ البداية، أن نتعب ونبذل الجهد لكي نوّمن الطعام لأجسادنا.

لكن المشكلة هي أن الإنسان لا يكتفي ولا يرضى بما يحصل عليه، لأن شهيته لا تشبع. ولهذا نراه يطلب دائماً المزيد والمزيد. وهنا ينصح سليمان الحكيم أن يكتفي بما عنده، وأن لا يحاول إرضاء شهيته التي ليس لها حدود. ثم كشف لنا عن

السبب. فكتب قائلاً: « لأنه ما فضل الحكيم على الجاهل؟ وأي شيء للفقير الذي يُحسن التصرف أمام الأحياء؟» (الجامعة ٦: ٨). فعندما تمتلك الإنسان الشهية التي لا حدود لها، لا يوجد فرق بين الحكيم والجاهل، إذ يقع كلاهما في نفس المشكلة، أو المأزق. ولا تكون هناك أية فائدة للفقير حتى ولو أحسن التصرف.

وتابع الحكيم كلامه ناصحاً: « رؤية العيون خيرٌ من شهوة النفس. هذا أيضاً باطل وقبض الريح» (الجامعة ٦: ٩). أي على الإنسان أن يكتفي بما تراه عيناه، لأن شهوة النفس لا تشبع، ولا يمكن إرواءها. ولهذا وصف الحكيم شهوة النفس بأنها باطلة وقبض الريح. أي أنها بلا معنى أو فائدة.

عزيزي المستمع، هل من الممكن أن يبدل الإنسان من بعض حقائق أو أمور جسده؟ كتب سليمان الحكيم قائلاً: « كل ما هو كائن أمرٌ مقرر منذ زمن قديم، وما جُبل عليه الإنسان من طبعٍ معروف يتعدّر تغييره لأنه لا يقدر على مخاصمة من هو أقوى منه (أي صانعه)» (الجامعة ٦: ١٠ تفسيرية).

هناك أمور هامة في جسدنا وكياننا مقررة سلفاً، ومن المستحيل علينا تغييرها أو مجادلة الله خالقنا عنها. وهذا ما قصده الحكيم عندما أكد أنه يتعدّر علينا كبشر تغيير بعض الأمور في حياتنا. فهل يستطيع أحد مثلاً كما قال المخلص المسيح، أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة؟ أو أن يبدل من عرقه أو قوميته؟ هذه حقائق قررها الله خالقنا سلفاً، فهو الذي يهيمن على حياتنا ومصيرنا. ولهذا علينا أن نقبل ما قسمه الله لنا. وأن لا نتذمر ونشكو، بل أن نعيش الحياة التي أعطانا إياها الله بفرح. فنحيا كل يوم لقيمته في ذاته، ونشكر الله على كل المزايا والصفات التي وهبنا إياها.

وتابع الحكيم شارحاً فقال: «لأنه توجد أمور كثيرة تزيد الباطل. فأى فضل للإنسان. لأنه من يعرف ما هو خير للإنسان في الحياة مدة أيام حياة باطلة التي يقضيها كالظل. لأنه من يخبر الإنسان بما يكون بعده تحت الشمس» (الجامعة ٦: ١١-١٢). إن حياة الإنسان ومهما كانت طويلة تبقى قصيرة، كما ذكرنا في اللقاء السابق. وهي في نفس الوقت نعيشها كالظل أو كالخيال، لأنها تمر سريعاً. وبما أننا لا نعلم المستقبل، ينصحنا الحكيم عندما نخطط للمستقبل أن نتطلع إلى الله، وليس إلى نفوسنا. لأنه هو الذي يعلم المستقبل وبيده مصيرنا.

تكلم الرسول بولس من رسل المسيحية الأوائل، عن هذا الموضوع بالذات فقال: « وصنع -أي الله- من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم. لكي يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً. لأننا به نتحرك ونوجد» (أعمال الرسل ١٧: ٢٦-٢٨). وتابع الرسول بولس قائلاً: « فالله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل. لأنه أقام يوماً هو فيه مزعم أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع إيماناً إذ أقامه من الأموات» (أعمال الرسل ١٧: ٣٠ و٣١).

لقد خلق الله كل واحد منا وبالمميزات التي يتمتع بها، والهدف هو لكي نطلبه ونتوب، وأن نؤمن بالمخلص المسيح الذي عينه الله لكي يدين المسكونة بالعدل. وأكد الله ذلك عندما أقام المسيح من الأموات. فهل تطلب الله وتتوب مستمعي، وتؤمن بهذا المخلص الفريد؟

مستمعي العزيز، هل شهيتك هي التي تقود حياتك؟ وهل تسود عليك شهوات النفس؟ إن الحكيم هنا ينصحك أن تتخلص من شهوات النفس التي تخدعك، لأنها كالسراب الذي يلمع من بعيد. وهذا لن يكون إلا إذا أتيت إلى الله، عن طريق المخلص المسيح، طالباً منه أن يحركك، وأن يجعلك إنساناً جديداً.